تحرير مكة

بقلم: أ.د. عادل بن علي الشدي

كان من نتائج صُلْحِ الحدَيْبَيةِ أَنَّ قبيلة خُزَاعةَ دَخلَتْ فِي عَقْدِ الرَّسُول ﷺ، وقبيلة بكر دَخَلَتْ فِي عَقْدِ قُريشٍ، ثُمَّ إِنْ رَجُلاً مِنْ خُزَاعَة سَمِع رَجُلاً مِنْ بَكْرٍ يُنْشِدُ شِعْرًا فِي هِجَاء النبيِّ ﷺ، فضرَبَه فشجَّه، فَهاج الشرُّ بيْنَهمْ، وَعَزَمَ بَنُو بكْرٍ عَلى مُحَارَبةِ خُزَاعَةَ، وَطلَبُوا النجْدَةَ مِنْ قُرَيْشٍ فَأعانُوهُمْ بالسِّلَاحِ والدَّوابِّ، وَقَاتَلَ مَعَهُمْ جَمَاعَةٌ مِنْ قُريشٍ مُخْتَفِين مِنهمْ صَفْوانُ بْنُ أميَّةَ وَعِكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَسُهيلُ بْنُ عَمْرٍو، فَانحازَتْ خُزاعَةُ إِلى الحرَمِ لائِذَةً بِه، إِلَّا أَنَّ بكرًا لم تحتَرِمِ الحرَمَ، وقاتَلَتْ خُزاعةَ بِهِ، وقتَلُوا مِنْهُمْ مَا يَزيدُ عَلَى العِشْرِينَ.

وَبِهذَا نقضَتْ قُريشٌ مُعاهدَةَ الصُّلْحِ الَّتِي بينَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ الله ﷺ، إِذْ أَعَانَتْ بَنِي بَكْرٍ عَلَى خُزَاعَةَ أَحْلَافِ النبيِّ ﷺ. فَلَمَّا أَعْلمتْ خُزاعةُ النبيَّ ﷺ بما فُعِلَ بِهِمْ قَالَ: **"لَأَمْنَعَنَّكُمْ مِمَّا أَمْنَعُ مِنْهُ نَفْسِيْ"**.

ثُمَّ إِنَّ قريْشًا نَدِمَت عَلَى ما فَعَلَتْ حَينَ لا يَنْفَعُ النَّدمُ، فأرْسَلُوا أَبَا سُفيانَ إِلى النبيِّ ﷺ ليجدِّدَ عهدَ الحديْبيةِ وَيَزِيدَ فِي المدَّة، إِلَّا أنَّ النبيَّ ﷺ أَعرضَ عَنْه ولم يجِبْه، فاسْتَعَانَ بِكِبَارِ الصَّحَابَةِ؛ أَنْ يتوسَّطُوا بَينَهُ وَبَينَ رَسُولِ الله ﷺ فَأَبَوْا جَمِيعًا، فَرجَع أَبُو سُفيانَ إِلَى مَكَّة مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحظَى بأيِّ اتِّفاقٍ أَوْ عَهْدٍ.

وَأَمَامَ نَقْضِ قُريشٍ للعُهُودِ وَالمَوَاثِيقِ مَع المسْلِمينَ فَقَدْ عَزَمَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى فَتْحِ مَكَّة وتأدِيبِ كُفَّارِها.

وَلَمّا تجهَّز رَسولُ الله ﷺ لفتْحِ مَكَّة أَخْفَى أمْرَه، لأَنَّه أَرادَ أَنْ يبغَتَ المشْرِكينَ في عُقر دَارِهم.

وَبعثَ رَسولُ الله ﷺ إِلى مَنْ حَوْلَه مِنَ العَربِ؛ أَسْلَمَ وَغِفَارٍ، وَمُزَيْنَةَ وَجهينَةَ، وأَشْجَعَ وَسُلَيْمٍ، حَتَّى بَلَغَ عددُ المسْلِمينَ عَشْرَة آلافِ رَجُلٍ. وَاسْتَخْلفَ النبيُّ ﷺ عَلَى المدينةِ أَبَا رُهْمٍ الغفَارِيِّ، وخَرَجَ يَوْمَ الأَرْبِعاءَ لعشْرٍ ليالٍ خَلَوْنَ مِنْ رَمضان، وَعقد الأَلْوِيةَ والراياتِ بقَديدٍ.

ولَمْ يبلُغْ قريشًا مَسيرُه، فَبعثُوا أَبَا سُفْيانَ يتحسَّس الأَخْبارَ، وقَالُوا: إِنْ لقيتَ مُحمدًا، فخُذْ لَنَا مِنْه أمانًا.

فَخرجَ أَبُو سفيانَ وَحَكِيمُ بْنَ حَزَامٍ وَبُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاء، فَلَمَّا رأوا العسْكَر فزِعُوا، فسمِعَ العبَّاسُ صَوتَ أَبِي سُفيانَ، فقالَ: أَبَا حنْظلةَ! قَالَ: لبَّيك. قالَ: هذَا رَسولُ الله ﷺ فِي عشرَةِ آلافٍ، فأسْلَمَ أَبُو سُفيانَ فَأجارَهُ العبَّاسُ، وَدَخَلَ بِه وبصاحِبَيْهِ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فأسْلَمَا.

وَأمر النَّبِيُّ ﷺ العبَّاسَ أنْ يذهبَ بأَبِي سُفيانَ فيُوقِفَه فِي طَرِيق مُرُورِ الجيْشِ الإسْلَامِيِّ؛ لِيرَى بأمِّ عَيْنَيْهِ قُوَّةَ الإسْلامِ والمسْلِمينَ، وَأَشَارَ العبَّاسُ عَلَى النبيِّ ﷺ بأنْ يجعَلَ لأبِي سُفيانَ شَيْئًا يفْتَخِرُ بِهِ، لأنَّه رَجُلٌ يُحبُّ الفخرَ فجَعل النبيُّ ﷺ: **"مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُو آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ المسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَه فَهُوَ آمِنٌ"**.

وَنَهى رَسولُ الله ﷺ عَنِ القِتالِ، وَقَدْ أَوْصَى أُمرَاءَه أَلَّا يَقْتُلوا إِلَّا مَنْ قَاتَلَهُمْ، فَلَمْ يلْقَ المسلِمونَ مُقاوَمَةً، غَيْرَ خَالِدِ بْنِ الوَلِيدِ، فإنَّه لَقِيَه صَفْوانُ ابْنُ أميَّة وسُهيْلُ بْنُ عَمْرٍو وعِكْرَمةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، فِي جَمْعٍ مِنْ قُرَيْشٍ بالخَنْدَمَةِ، فَمنعُوهُ مِنَ الدُّخُولِ، وَشَهرُوا السِّلَاح وَرَموا بالنَّبْلِ، فَصَاحَ خَالِدُ فِي أَصْحَابِه وقاتَلَهمْ، فَقَتَلَ مِنَ المشْرِكينَ نَحْوَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلاً، ثُمَّ انهزَمُوا، وَقُتِل مِنَ المسْلِمين كَرْزُ بْنُ جَابر وحُبَيْش بْنُ خَالِدِ بْنِ ربيعةَ.

وَضُربتْ للنبيِّ ﷺ قُبَّةٌ بالحجُونِ، وَدَخل مكَّةَ عُنوةً، فأسْلَمُوا طائِعينَ وَكَارِهينَ، فَطافَ بالبيْتِ عَلَى راحِلَتِه، وَحَوْلَ الكعبةِ ثَلاثُمائةٍ وستُّونَ صَنمًا، فَجَعَلَ كُلَّما مَرَّ بصَنَمٍ مِنْهَا يُشِيرُ إِلَيْهِ بِقَضِيبٍ فِي يَدِه ويَقُولُ: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ فَيقَعُ الصَّنَمُ لوجْهِهِ، وَكَانَ أعظمُهَا هُبَلُ وكانَ تِجاه الكَعْبَةِ، ثُمَّ جَاءَ النبيُّ ﷺ إِلى المقَامِ، فَصَلَّى خَلْفَه ركْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ للنَّاسِ فَقَالَ: **"يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟"** قَالوا: خَيرًا؛ أَخٌ كَرِيمٌ، وابْن أخٍ كريمٍ. قال: **"اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ"** فَعَفَا عَنْهم بَعْدَ أَنْ أمْكَنه اللهُ منْهمْ، وَضَرَبَ بذَلِكَ المثْلَ فِي العفْوِ وَالصَّفْحِ عَنِ الجُنَاةِ بَعْدَ القدْرةِ عَليهِمْ والتمَكُّن منْهم ثُمَّ جَلَسَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى الصَّفا فبايَع النَّاسَ عَلَى الإسْلَامِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِيما استَطاعُوا، ثُمَّ تَتَابع النَّاسُ.

وَكانَ الفَتْحُ يومَ الجُمُعةِ لعَشْرٍ بَقِيْنَ مِنْ رمضانَ وأقامَ بمكَّةَ خمسَ عَشرَة ليلةً، ثُمَّ خَرجَ إِلى حُنَيْنٍ، وَاستَعْمل عَلى مَكَّةَ عُتَّابَ بْنَ أُسَيْدٍ يُصلي بِهم، ومُعَاذَ بْنَ جَبلٍ يُعلِّمُهم السُّنَن والفِقْهَ[1].

الأمين العام المساعد

لرابطة العالم الإسلامي

---

(١) انظر: الوفا ص(٧١٨-٧٢٠)، هذا الحبيب يا محب ص(٢٥٤)، وصحيح السيرة ص(٤٠٧).